



قبل الثورة، كان الخوف يدفع السوريين إلى الحديث عن أنفسهم وكأنهم ضيوف لدى النظام. وكان النظام يتحدث عنهم وكأنهم خدم لديه. كان الخوف يدفع السوريين إلى عزو كل ما هو سلبي في حياتهم إلى أنفسهم، وكل ما هو إيجابي إلى القيادة، إلى رجل خصم الله به دون جميع شعوب الأرض، مع أنهم لا يستحقونه، ويعد رئيساً مظلوماً لأنه يحكم شعباً صغيراً لا يرقى إلى مستوى الاستثنائي والفرد.

كانت دعاية النظام الرسمية تؤكد: لو أن رئيسه حكم أميركا لنال المكانة التي تتفق مع مواهبه وأهميته، لكنه لحسن حظ السوريين وسوء حظه الشخصي مبتلى بشعب صغير، لو لا قيادته الحكيمة لكان أحد أكثر شعوب الأرض تأثراً وهامشية، ولما كان لديه شيء يثير الاهتمام. لذلك، من الحتمي تقسيم التاريخ السوري إلى مرحلتين: واحدة بائسة سبقت وصوله إلى الحكم، كانت البلاد غارقة خلالها في شقاء لا يوصف وعجزة عن مواجهة أي مشكلة مهما كانت صغيرة، وأخرى تلت لحظة فريدة في حياتها بدأت مع توليه القيادة، هي حقبة سعد فيها المواطنين به وشققي هو بهم، لأنه يعمل ليلاً ونهاراً لإخراجهم من حال ميؤوس منها كانوا يعيشون فيها بلا أمل أو رجاء، وبلا ما وفره لهم بجهوده الاستثنائية الملهمة من حاضر تليد ومستقبل مجيد.

روى أحد الاقتصاديين قصة تبين هذا الواقع حدثت خلال لقاء جمعه مع ضابط كبير أخبره أن الفضل فيما يصل سوريا من مساعدات يرجع إلى السيد الرئيس، فلا ضير إن هو اعتبره ملكه الشخصي، الذي يدفعه نبله وكرمه إلى الجود به على شعب لا حق له فيه. سأله الرجل إن كان المال لا يمنحك لسوريا، فنهره الضابط بحدة وقال: ولماذا لم تكون الأموال تأتي إلى سوريا

قبل الآن؟ إن سوريا ليست هي التي تتلقى المعونات، ولو كنت مكان السيد الرئيس لما أعطيتها قرشا واحداً مما يأتيني، ولنر عندئذ ماذا كان بسعوك أن تفعله أنت وسورياك! من هذا المنطق، كانت السلطة تسمى زيادات الرواتب «أعطيات»، فهي ليست مستحقات الموظفين، التي يحتم القانون دفعها لهم وفق نسب معروفة ومحددة بصورة مسبقة زمانياً وحسابياً، بل هي «منح» توهب لهم من واجبهم شكر سيدهم عليها وكأنها من ماله الخاص، أو كأنه أخرجها من جيبه ووضعها في جيوبهم، على الرغم من أنهم ليسوا بحاجة إليها. يحرم السيد الرئيس نفسه مما يحصل عليه الرؤساء عادة، بل إنه يجوع كي يشعروا، ويغani الحرمان كي ينعموا بالوفرة، ويسكن في بيت عادي كي يسكنوا بيوتاً فارهة.

ثمة طرفة تكشف النظرة الرسمية إلى علاقة الرئيس مع سوريا شعباً ووطناً. أخبر عنصر في الأمن عنصراً آخر أن السيد الرئيس أصدر مرسوماً حول الزلازل، فعلق هذا بتلقائية: لا يستحق الشعب ما يفعله السيد الرئيس من أجله، ولو كنت مكانه لما أصدرت مرسوماً يمنع وقوع الزلازل، ولتركتها تفتك به. تصور أن هذا الشعب اللعين لم ينظم إلى الآن مسيرات تشكريه على هذا الإنجاز.

هذه ليست مجرد أحداث عابرة ونكات. إنها وصف لعقلية آمنت أن البلاد تصنع من فوق، وأن كل ما فيها يرجع إلى جهود شخص واحد هو «السيد الرئيس»، فهي إذن بلاده: ملكه الشخصي والخاص، الذي يعيش منه وبفضلـه شعب طفيلي يبقىـه هو حياً بفضلـ مكرمات تعـيلـه وتـكفلـ استـمارـه.

بهذه الصورة الآيديولوجية، التي لا تتفق مع أي واقع في أي زمان أو مكان، وتقلب الحقائق رأساً على عقب، فتجعلـ النظام منـجاً وـعاملـاً وـالشعب سـلـابـاً نـهـابـاً وـكسـولاً، وـتوقفـ الواقع علىـ رـأسـه بـدـلـ قـدمـيهـ، وـتنـتـجـ الـدـولـة وـالـشـرـعـيـة منـ غـيرـ مكانـهاـ التقليديـ: الشـعـب وـسيـادـتهـ. لا عـجـ أن تـتـشـوـهـ حـيـاةـ المـوـاـطـنـ، وـأنـ يـكـونـ الخـوـفـ أـكـثـرـ أـشـكـالـ وـعـيـهـ تـعـبـيراـ عنـ وجودـهـ وـتحـصـيـنـاـ لهـ، وـأنـ تـكـمـنـ سـلامـتـهـ فيـ هـامـشـيـتـهـ وـابـتعـادـهـ عنـ الشـؤـونـ العـامـةـ، وـتـرـكـ مـصـيـرـهـ وـمـصـيـرـهـ وـطـنـهـ لـإـرـادـةـ فـردـ وـاحـدـ لـاـ سـلـطةـ لأـحـدـ عـلـيـهـ هوـ «ـسـيـدـهـ»ـ الذـيـ يـمـلـكـ كـلـ ماـ يـلـزـمـ منـ أـدـوـاتـ وـقـوـةـ وـمـوـارـدـ لـلـتـحـكـمـ بـهـ وـإـعـادـةـ إـنـتـاجـهـ عـلـىـ الصـورـةـ التـيـ تـخـدـمـ سـلـطـانـهـ، وـيـقـرـرـ وـحـدـهـ كـيـفـ تـكـوـنـ شـؤـونـهـ وـمـاـ هـيـ مـصـالـحـهـ وـكـيـفـ تـتـحـقـقـ وـمـاـ النـتـائـجـ المـتـرـتبـةـ عـلـيـهـ فـيـ حـيـاةـ كـلـ تـابـعـهـ مـنـ هـؤـلـاءـ الذـينـ يـسـمـيـهـمـ فـيـ مـفـتـحـ خـطـبـهـ: «ـمـوـاطـنـيـهـ الأـعـزـاءـ وـإـخـوـتـهـ المـوـاطـنـيـنـ»ـ.

ربما كان هذا الوضع العبثي هو الذي يفسـرـ ماـ يـجـريـ فـيـ سـورـيـاـ الـيـوـمـ مـنـ عـنـفـ، فالـتـابـعـونـ الذـيـ يـعـيـشـونـ مـنـ نـعـمـ «ـسـيـدـهـ»ـ لـيـسـ مـنـ حـقـهـ بـالـطـبـعـ التـمـرـدـ أـوـ الثـورـةـ عـلـيـهـ، وـلـاـ يـجـوزـ أـنـ يـعـتـمـدـواـ حـيـالـ أـفـضـالـهـ لـغـةـ غـيرـ لـغـةـ التـسـبـيـحـ بـحـمـدـهـ وـشـكـرـهـ عـلـىـ عـطـاـيـاهـ وـمـكـرـمـاتـهـ، فـإـنـ هـمـ تـمـرـدـواـ أـوـ ثـارـوـاـ أـوـ اـحـتـجـواـ، كـانـ مـنـ حـقـهـ وـوـاجـبـهـ مـعـاـلـمـتـهـ كـعـصـاـةـ قـضـواـ عـلـىـ مـسـوـغـاتـ وـجـوـدـهـ بـأـيـدـيـهـمـ، وـغـدـاـ مـنـ الـمـنـطـقـيـ وـالـحـتـمـيـ أـنـ يـسـتـعـيـدـ مـاـ حـصـلـواـ عـلـيـهـ مـنـهـ: أـيـ كـلـ مـاـ يـمـلـكـونـهـ، بـمـاـ فـيـهـ حـيـاتـهـ.

يجـدـ ماـ يـجـريـ فـيـ سـورـيـاـ تـفـسـيرـهـ فـيـ هـذـهـ الآـيـدـيـوـلـوـجـيـاـ السـلـطـوـيـةـ، التـيـ تـنـتـجـ عـقـلـيـةـ تـعـتـرـفـ الـمـوـاـطـنـ شـيـئـاـ نـافـلاـ لـلـزـومـ لـهـ، وـمـمـارـسـةـ هـمـهـ التـخلـصـ مـنـهـ كـعـبـةـ زـائـدـ لـلـزـومـ لـهـ، خـاصـةـ إـنـ كـانـتـ مـطـالـبـاتـهـ تـهـدـدـ تـواـزنـاتـ السـلـطـةـ وـتـبـدـلـ طـابـعـ عـلـاقـاتـهـ مـعـهـ.

يـحـارـ الـعـالـمـ فـيـ فـهـمـ مـاـ يـجـريـ مـنـ عـنـفـ لـهـ فـيـ سـورـيـاـ، وـلـنـ يـكـونـ لـهـ أـيـ مـسـوـغـ فـيـ أـيـ مجـتمـعـ أـخـرـ أـوـ فـيـ أـيـ عـلـاقـةـ سـيـاسـيـةـ بـيـنـ سـلـطـةـ حـاكـمـةـ وـمـوـاطـنـيـنـ مـحـكـومـيـنـ. لـذـلـكـ تـرـىـ بـيـنـ مـرـاقـبـيـ الـوـضـعـ السـوـرـيـ مـنـ يـرـدـ عـنـهـ إـلـىـ طـبـيـعـةـ خـاصـةـ بـالـقـابـضـيـنـ عـلـىـ أـعـنـتـهـ، لـاـ تـشـبـهـ طـبـيـعـةـ أـيـ مـجـمـوـعـةـ سـيـاسـيـةـ أـخـرـيـ. وـالـحـالـ، لـاـ يـرـجـعـ عـنـفـ الرـسـمـيـ السـوـرـيـ إـلـىـ طـبـيـعـةـ بـشـرـيـةـ مـاـ، بـلـ هـوـ نـتـاجـ مـرـكـبـ وـمـعـقـدـ لـآـيـدـيـوـلـوـجـيـةـ سـلـطـوـيـةـ مـشـحـوـنـةـ بـمـصـالـحـ فـئـوـيـةـ وـحـسـابـاتـ خـلـاصـيـةـ تـنـزـهـ الـحـاـكـمـ وـتـضـعـهـ فـيـ مـرـتـبـةـ تـبـيـحـ لـهـ قـلـبـ الـجـرـائـمـ التـيـ يـرـتكـبـهـاـ نـظـامـهـ إـلـىـ فـعـلـ أـخـلـاقـيـ عـلـىـ صـعـيـدـهـ الـخـاصـ وـوـطـنـيـاـ فـيـ الـمـجـالـ الـعـامـ. مـنـ يـسـتـمعـ إـلـىـ

تصريحات وأحاديث المسؤولين السوريين يرى هذا الجانب مبئوثاً بوضوح في كل جملة يقولونها، ويراه في القول الصريح، الذي ينفي أن يكون قتل الشعب جريمة، ويؤكد بعد مرور قرابة عامين أن موت الشعب فعل أخلاقي ووطني وإنساني، يطهره من العناصر الفاسدة والخائنة. هذه العقلية بالذات هي، بنتائجها العملية، البلاء الأعظم الذي حل بسوريا!

المصدر : الشرق الأوسط

المصادر: